

الإسلام في المجتمعات القبليّة (*)

نشر أكبر أحمد

مراجعة أحمد موصلي

يعرّف المحرران في التقديم، القبيلة بأنها مجموعة ذات اسم، يميز أعضائها عن غيرهم، وتحتلّ مكاناً ما، وتقوم بالحفاظ على انتظامها. لكن كيف يمكننا وصف القبيلة في المجال الإسلامي؟ وما هي العلاقة بين الأيديولوجيا القبلية والإسلام؟ يحاول هذا الكتاب الإجابة على بعض الأسئلة الأساسية المؤدية إلى فهم المجتمعات القبلية في المجال الإسلامي. ويمكن اعتبار هذا الكتاب إضافة إلى الإثنوغرافيا القبلية الإسلامية.

أصبح مفهوم المجتمعات التجزئية Segmentary مقبولاً وجزءاً عادياً من الأدبيات الأنثروبولوجية. فالمجتمعات / القطاعات قبلية، وتميل إلى السواسية النسبية، وتشكل قطاعات بالمعنى الضيق للكلمة، إذ إنها تقف في موازاة بعضها بعضاً، وفي تعارض وانفصال وانصهار. وتتميز المجتمعات القبلية عن المجتمع القائم على الطبقات والفئات، طبقات المحاربين، ذات التراتب الهرمي. ومن أولى توضيحات نظرية المجتمعات السواسية في مجال الإثنوغرافيا ما قام به إيفانز بريتشارد Evans - Pritchard. وتبقى هذه النظرية، خاصة عند دراسة المجتمعات القبلية الإسلامية - سائدة.

ولكن ظهر حديثاً نقد متصاعد لهذه الرؤية، وخاصةً في الولايات المتحدة، وقاد هذا النقد Clifford Geertz. وفيما يلي بعض نقاط الانتقادات الأساسية: ليس القطاعات بمتوازنة أو متساوية؛ على العكس، هناك تباينات في المصادر الأساسية، تفاقمت مع ظهور السلالات المدعية للأفضلية. كما أن القطاعات لا تتحد بالضرورة في أوقات الأزمات.

لكن من قراءة هذا الكتاب يبدو أن مجمل المقالات استعملت نظرية السلالات / القطاعات في فهم المجموعات القبلية الإسلامية. لكنها وُظفت لقراءة المجال السياسي لا لتحديد الهوية الاجتماعية.

ويمكن الاستنتاج من مقالات الكتاب أن الخاصية الأساسية للمجتمع القبلي / الإسلامي هي علاقته مع العالم الإسلامي على العموم مما يجعله جزءاً من الأمة الإسلامية. وهو، بالإضافة إلى هذا، مجتمع يعتبر نفسه تقليداً إسلامياً بالمعنى الحضاري وبالمعنى الديني، كما أن المجتمعات الإسلامية المجاورة تعتبره كذلك. وهكذا فإن مجتمع القطاعات الإسلامية، أو المجتمع ذا القطاعات في سياق الإسلام، هو الوحدة التي تظهر بنيةً وتنظيماً متساوياً ومتنافساً. لكنه في نفس الوقت إسلامي في الدين وفي الحضارة.

وتفترض المقالات أنه عند دراسة المجتمعات / القطاعات الإسلامية يشكل الإطار الديني العام مكوناً مهماً في نظريات ومنهجية العلوم الاجتماعية. كما تفترض أن هذه المجتمعات لا تتمتع باستقلالية حضارية لكنها مرتبطة بالحضارة الإسلامية العامة. فهذه المجتمعات تشترك في الدين والمفاهيم والرموز في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

ففي العالم القبلي الإسلامي، ليست القبيلة بقبيلة بسبب موازاتها ومساواتها لقبائل أخرى في نفس النظام، أو لبعض المراكز الحضارية بل وأيضاً، لموازاتها ومساواتها لسلطة إقليمية سياسية وحتى في بعض الأحيان للسلطة الوطنية، والتي غالباً ما كانت ملكية أو وراثية، والتي تدعي حقاً فرض الضرائب والتجنيد وما إلى ذلك. على أي حال، إن مقاومة القبيلة لمثل هذا الادعاء يعكس، رغبتها، في

حال القوة، في تقرير مصيرها مع أقلّ تدخّل خارجيّ ممكن سواء عن القبائل الأخرى، أو القوى، أو من جانب الحكومات (الوطنية والاستعمارية).

تتفاوت سياسات الحكومات مع القبائل من القهر إلى التوافق؛ وكذلك ردود أفعال القبيلة، تفاوتت من خضوع كامل للسلطة الحكومية وتعاون معها إلى العداوة والعصيان الصريح. مع هذا، لا بدّ من الملاحظة أنه عندما تصبح سلطة الدولة فعّالة ومفروضة تبدأ القبيلة بفقدان شخصيتها الهامشية بالنسبة للدولة، وكذلك بفقدان الكفاية البنيوية، فتتحول تدريجياً إلى مجموعات من الريفيين دون شخصية مميزة. ويبدو أن خلع صفة «القبيلة» أو الاستقرار يتحدد من خلال شكل التعامل بين القبيلة والدولة.

ومن الجدير ملاحظته أنّ المجتمعات القبلية تعتبر نفسها مسلمة، بالرغم من أنها أمة، وقد تكون حتى غير مرتبطة بالإسلام المؤسسي. إنهم يعتبرون أنفسهم مسلمين أتقياء. وهكذا، فهم يعيشون في الحركات الدائرية التي تعيد إنتاج الإسلام الحضري أو المستقرّ في المدن، وهو ما يوازي نسخة مبسّطة لنظرية ابن خلدون في قيام وانحلال الدول خلال ثلاثة أجيال والتي كان قيامها على أساس العصبية.

ومن المهم تأطير بحث موقع ودور السلالات المقدسة أو الدينية لأنّ القبائل غالباً ما تدّعي الاتّصال بالنبيّ أو بأحد أصحابه. ومن الواضح أنّ السلطة الدينية تشكل جزءاً طبيعياً مفادُهُ الارتباط بالنبيّ عبر ابنته فاطمة. على أي حال، ترتقي العديد من المجموعات الدينية لتتبوأ السلطة السياسية، وخاصة في أوقات الأزمات الحادة. كما أنّ من أهم الوظائف للسلالات ذات المحتد الديني ربط المجتمع المحلي في النظام الإسلامي؛ فتصبح بذلك مرجعاً عقائدياً واجتماعياً للمجتمع.

لكنّ التقاليد الإسلامية بالإضافة إلى تقاليد القبائل القائلة بتساوي جميع أبنائها. لا تشجّع على نشوء المجموعات ذات القداسة. لهذا، يخطيء من يصف المجموعات أو السلالات الدينية بالقداسة. فالمسلمون متساوون أمام الله وفي

المجتمع، قد يكون البعض أروع من الآخرين أو أكثر التزاماً بالجماعة، لكنهم يظلون متساوين أمام الله حتى يُفصل بينهم يوم القيامة. لهذا، يحقُّ لأيِّ شخصٍ وبغضِّ النظر عن أصله، قيادة الأمة في المجتمع الإسلامي، وخاصةً في الأزمات. لكن يبدو أن هناك علاقةً لازمة ما بين ظهور القيادة الدينية والسلالة الدينية في الأوقات العادية والقيادة الكارزمية في الأيام الصعبة. لكنَّ هذا لا يعني تلازم القيادة مع السلالة الدينية في الأيام العادية.

يترتب على هذا، ومن خلال المقالات في الكتاب، أن إطار الرؤية الشمولية والكاملة للمجتمع الإسلامي عالمية وثبات الرمزية الإسلامية (أي رموز الإسلام) عند المسلمين وفي المجتمع. إذ إنَّ هناك علاقةً ربطاً ما بين الرمزية والسلطة والعلاقات الاجتماعية. تشكُّل هذه الرموز في ديناميكية الحياة السياسية والاجتماعية الإسلامية سبلاً معرفيةً وتحريضية فتزود السبل التحريضية الدافعة لعمل إسلامي على جميع مستويات المجتمع الإسلامي. قد يزودنا هذا بمفتاح أساسي لفهم استمرارية القيم الإسلامية وعالميتها في المجتمع الإسلامي. فالرموز الإسلامية ما زالت فعالة ومرئية وواضحة في الدول الإسلامية، كإيران والسعودية، كما أنها أيضاً واضحة المعالم لكنها مستترة في العديد من الأماكن، كما هو الحال مع المسلمين السوفييات الذين كانوا يدفعون مبالغ باهظة لامتلاك القرآن الكريم. فهذه الرموز، الظاهرة منها والمستترة، تزود المسلمين بمعالم تؤثر في سلوكهم وتقرر تعاملهم مع الآخرين. وعادة ما يكون التفاعل الاجتماعي خلاصةً للرموز الإسلامية ونتيجةً لها، أو على الأقل مرتبطةً بها.

فالمسلمون يتعرفون على هذه الرموز أينما كانوا (كالأركان الخمسة). وتشير استمراريته على مدى أكثر من ثلاثة عشر قرناً إلى صلابتها. كما أن هناك رموزاً أخرى، كالجهاد، والتي بالرغم من عدم وضوح مفهومها، تبقى مسألة شعورية وتشكل بأشكال عديدة، المادية منها والمعنوية.

تشكل الأركان الخمسة للإسلام إذن رموزاً اجتماعية معروفة، كما تشكل أساس فهم وتعريف التنظيم الاجتماعي الإسلامي والسلوك الإسلامي والحياة الاجتماعية على العموم.

إن الرمز الأساسي عند المسلمين هو الشهادة أو الكلمة التي تعلن توحيد الله ونبوة محمد. وقد تأثرت بها مسائل السلطة والخلافة، وهي المسائل المركزية في الحياة السياسية للمجتمع القبلي في الإسلام الأول. فمند بداية الإسلام ظهرت عدة أنماط للشرعية السياسية. لكن الجميع رفع راية إجماع الأمة وسلطة النص، والقراة مع النبي عند معالجة أمور الحكم.

إن الذاكرة الإسلامية فياضة بالتراث ومرتبطة بالحوادث التاريخية العظيمة. لذا أصبحت معركة أحد وبدر وكرلاء واستشهاد الحسين وما إلى ذلك جزءاً ليس من التاريخ الإسلامي وحسب بل وأيضاً جزءاً من الفلكلور الشعبي.

وكذلك الأمر مع الحكم، فبالرغم من تعدد أنواع الحكام في البلاد الإسلامية بالإضافة إلى تعدد أشكال الدولة إلا أنها جميعها تظهر شرعيتها من خلال الاستشهاد بالنبي محمد وسنته. على أي حال، هناك تشابه في البنى القبلية على رغم الفروقات الجغرافية والحضارية، وتسعى أبحاث هذه المجموعة إلى شرح هذا الأمر ووضع معايير عامة تساعد في فهم هذه المجتمعات.

ومن الأمور التي تجمع العالم الإسلامي ذا الطبيعة المتحددة سياسياً وحضارياً المواجهة الطويلة والحادة مع القوى الغربية خلال فترة استعمارها. وفي معظم الأحوال، كان التفاعل الحضاري والاجتماعي بين المنظومتين الغربية والإسلامية يعمل بصورة ميكانيكية، وليس بصورة جدلية.

لقد حاول المستعمرون كمسيطرين على معظم شعوب العالم الإسلامي، تشريع حكمهم بمقولات زودهم بها المستشرقون: أي، أن الحكم الإسلامي يقوم على القمع، بينما يقوم الاستعمار على الرحمة؛ وتعترف النظرية السياسية الإسلامية بشرعية النظام الحاكم بالقوة، لهذا، فإن الحكم الاستعماري أفضل من فساد النظام واضطراب المجتمع؛ كما أن السيطرة السياسية على الأراضي الإسلامية لا تؤثر بالحياة الدينية والاجتماعية الإسلامية، وبالتالي فليس هناك من ضرر عميق للإسلام، إذ إنه لم يحصل غزوٌ لتراثها السياسي الذي بقي دون خروقات (أي الاستبداد والاستيلاء على الحكم بالقوة...!).

لا تقوم أبحاث هذا الكتاب على دعوى دينية أو لاهوتية معينة، بل هي عدة تحليلات للمجتمعات/القطاعات الإسلامية؛ أي المجتمعات التي تشكل حضارياً وتقليدياً جزءاً من العالم الإسلامي والتي تدرك ذاتها باعتبارها إسلامية. لقد كان من السائد في الأنثروبولوجيا الانجليزية والفرنسية إهمال العامل الإسلامي في مثل هذه المجتمعات بسبب العداوة وسوء الفهم. في هذا الكتاب يحاول المؤلفون النظر إلى هذه المجتمعات كأنتروبولوجيين، لا كمستشرقين، كما يعكسون في وجهات نظرهم مدارس عدة، كالماركسية والبنوية، كما أنهم من جنسيات مختلفة، جزائرية وأميركية، وبريطانية وفرنسية وباكستانية وسوفيائية، مما يلغي أو يوازي أي ميل لدى أي من المؤلفين، فيسمح ذلك بالنظر إلى هذه المجتمعات من وجهات نظر متعددة.

ومن المؤكد أن العوامل القبلية المُرَقَّة والدينية الحضارية العامة مركزية في هذه الدراسة. لكن لا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ التشابه البنوي والحضاري بين المجتمعات المختلفة هو حقيقة تنتمي إلى مستوياتٍ عديدةٍ للإطار السياسي الوطني، سواء كان ذلك في الممالك القائمة أو السابقة (المغرب، السعودية، إيران، أفغانستان) أو جمهوريات اشتراكية عربية (الجزائر، ليبيا، الصومال)، أو الدولة الشيوعية القوية (روسيا السوفيائية) أو المناطق شبه المستقلة (كالمناطق القبلية في باكستان أو الحدود الأفغانية/الباكستانية).

تغطي الدراسة مناطق قبلية عديدة كالسعودية حيث ظهر الإسلام، والساحل المغربي وتركستان السوفيائية وبلوشستان (في إيران وباكستان)، وكذلك المغرب وليبيا وأرض الصومال.

يركز أرنست غلنر (Gellner) على دور ومكانة السلالات المقدسة في البنية القبلية في المغرب، وتبحث (Morsy) دور التحكيم في النظام السياسي المغربي منذ ما قبل الإسلام وحتى اليوم. أما ديفيد هارت وآ. لويس فيبحثان الأوجه المحلية للخصائص البنوية للمجتمعات القبلية في المغرب والصومال. ويلقي الباحثان الضوء على الإطار الإسلامي العام لتلك البنى. وتدرس فاني كولونا (Fanny Colonna) مقاومة الاستعمار وتناجها في المجتمع الجزائري. كما يرسم دونالد كول

(Cole) أهمية التحالفات والعلاقات التي تقام من خلال الزواج، وهذا على نقيض الحكمة التقليدية التي تركز على العُصبة من خلال دراسته لبني مرة في الربع الخالي السعودي. أما اميرز بيترز (Peters) فتوضّح دور الطقوس (أو الشعائر) في المجتمعات القبلية الإسلامية.

وخارج الدائرة العربية يصف بازيلوف (Basilov) أشكال الطقوس والمعتقدات عند التركمان السوقيات، ويفترض أن العديد من هذه الأشكال التي تمت، أسلمتها، تعود إلى ما قبل الإسلام. كما يصف ريتشارد تاپر (Tapper) ثلاث مجتمعات قبلية لا تمت بصلة إلى بعضها البعض، لكنها تعيش في بيئات متشابهة وتشابه فيها أنظمة الإنتاج الرعوية الشاهسيقان في شمال غرب إيران، وهم شيعة يتحدثون بالتركية، والبصري في جنوب غرب إيران، وهم شيعة يتحدثون بالفارسية، والدوراني في شمال وسط أفغانستان، وهم سنة يتحدثون بلغة البشتون. ويحلل لويس دويري (Dupree) علاقة الفلكلور والحرب بين قبائل الأفغان. أما التدين والقيم والتغيرات الاقتصادية لمجموعة بدوية في أفغانستان فيبحثها بهرام توكليان (Touklian). ويرى ستيفن باستر (Pastner) أن الصراع على عالم الروح يصبح تبعاً للمنافسة العادية، فيتحول الولي إلى بطل يوزع المغام على أتباعه ويزودهم بمشاعر احترام الذات (كما هو الحال في بلوشستان في شبه القارة الهندية). ويفصّل أكبر أحمد دور الرموز الدينية في المجتمع البشتوني وعلائقها المتشابهة في أنحاء العالم الإسلامي.

ترودنا هذه المقالات بدلالاتٍ متعدّدة ومقنعة مفادها أن نماذج المجتمعات / القطاعات قد تكون نشأت قبل البعثة المحمدية إلا أن الإسلام استوعبها وأسلمها. إن هذه المجتمعات منتشرة في جميع أنحاء الشرق الأوسط الإسلامي. وتخلص معظم هذه المقالات إلى أنه بالرغم من التنوعات الحضارية فإن هذه المخيمات تشترك في كونها قليلة من حيث عدد السكان، وتقع في مناطق قليلة الإنتاج، وتمتلك وعياً حاداً بأصلها ولسانها، ولا تحبذ الاستقرار في القرى، كما هي على درجة عالية من الوعي بهويتها الإسلامية بالمعنى الديني وبالمعنى السوسيولوجي.

وتُخَلِّص الدراسات أيضاً إلى أن مفاهيم الجماعة والشرعة والتصوف إلى درجة أقل، وما يتضمنه هذا في السياق المحلي، من سُلالاتٍ نبوية ومقدَّسة، تتساوى من حيث الأهمية. فالمسلم يرى أنه منتمٍ إلى جماعة تحتضنه دينياً وسوسيولوجياً، ويرى من واجبه المحافظة على تقاليدها. وتلعب أركان الإسلام الخمسة دور المثبَّت لعضوية المسلم في مجتمعه وعالم الإسلام العام.